العنوان:	التوثيق الميداني عند ابن حزم الأندلسي
المصدر:	عالم الفكر
الناشر:	المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
المؤلف الرئيسي:	بنيعيش، محمد بن محمد
المجلد/العدد:	مج21, ع3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1993
الشهر:	مارس
الصفحات:	276 - 286
رقم MD:	672458
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, EcoLink
مواضيع:	نقد الكتب، كتاب طوق الحمامة، ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت. 456 هـ، الفكر الإسلامي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/672458

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

بنيعيش، محمد بن محمد. (1993). التوثيق الميداني عند ابن حزم الأندلسي.عالم الفكر، مج21, ع3، 276 - 286. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/672458

إسلوب MLA

بنيعيش، محمد بن محمد. "التوثيق الميداني عند ابن حزم الأندلسي."عالم الفكرمج21, ع3 (1993): 276 - 286. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/672458

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

التوثيق الميداني عند ابن حزم الأندلسي

د. محمد محمد بنيعيش

من مميزات البحث العلمي الحديث نجد على رأسها ذلك الاعتماد المكثف على الدراسة الميدانية كوسيلة موضوعية لصياغة نظرية ما ، صياغة مدققة وصادقة .

وبعد، فهذا البحث الميداني قد يوظف على عدة مستويات منها ذات الطابع ما يسمى بالعلوم التجريبية أو العلوم البحتة .

ولئن كان الاتجاه في تحصيل العلوم قد عرف منذ القدم عند الانسان إلا أنه لم يكن يعرف منهجا منظما ومواصفات كفيلة لضمان سلامة التحصيل العلمي في أرقى مستوياته كما هو عليه الحال في عصرنا وخاصة في العلوم التجريبية .

غير أن ما أصبح يسمى في عصرنا اليوم بالعلوم الانسانية نجد أن مؤسسها قد يدعون أنهم السباقون الى اعتماد الدراسة الميدانية كمعهد للتحصيل العلمي المؤسس لهذه النظرية أو تلك . وبهذاك الادعاء قد نجد إقصاء لمجهودات علماء ومفكرين مروا عبر التاريخ ونظروا عن طريق الملاحظة الخارجية والبحث الميداني في العلوم الانسانية وخاصه ابداعات المفكرين المسلمين في هذا الميدان .

وبعد مراجعتنا للتراث الاسلامي وموقفه من البحث الميداني وتوظيف الاستمارات والاستبيانات تبين لنا انه توجد نماذج راقية تدل على توظيف البحث الميداني في تأسيس العلوم النظرية والخاصة بالانسان .

بالاضافة الى هذا فقد وجدنا توثيقا نوعيا لهذا البحث ينبي بأحكام على طريقة السند الحديثي وعلى واقع ونوعية وأحوال الاشخاص محل البحث والتقصي

ومن بين أهم المفكرين والباحثين المسلمين الذين شخصوا لنا هذا التحري المعرفي والاستقصاء الموضوعي للعلوم الانسانية نجد ابن حزم الأندلسي ٣٨٤ هـ نعرض لمنهجه كالتالي .

(أ) المنهج التخصصي عند ابن حزم

إن الكتاب الذي أفرغ فيه ابن حزم أهم مقومات منهجه في البحوث النفسية على مستوى دراسة الظواهر ، هو كتابه «طوق الحمامة» وكعادة المؤلفين المنهجيين حينما عرض ابن حزم لكتابه هذا كان يبث بين الفينة والاخرى بعض أهم أسس المنهج الذي يحدد مستوى دراسته وغايته من تأليف الكتاب ، وذلك اما تصريحا أو تلميحا ، ومن بين أهم الفقرات المعبرة عن منهج ابن حزم في «طوق الحمامة» كقانون عام يسير عليه الكتاب ، هذا النص التالي ، يقول فيه : «ولم أمتنع أن أورد لك في هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويكثرون القول فيها موفيات على وجوهها ، ومفردات في أبوابها ومنعمات التفسير مثل الافراط في صفة التحول وتشبيه الدموع بالامطار وأنها تروي الأسفار وعدم النوم البتة وانقطاع الغذاء جملة الا أنها أشياء لا حقيقة لها ،

وانما اقتصرت في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلا على أني قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يكتفى بها لئلا أخرج عن طريق أهل الشعر ومذهبهم»[1]

ومن هنا فقد امتاز الكتاب بعرض أشبه ما يكون بالدراسات النفسية الحديثة القائمة على تتبع الشخصيات ودراسة نفسياتها ابتداء من الخبرات النفسية القائمة على التجربة الذاتية والمعاناة الشخصية وانتقالا الى ملاحظة الآخرين والادلاء بأخبارهم على منهج أهل الحديث وذلك باتصال السند واعتماد الثقات في إيراد هذه الاخبار.

ولم يكن اعتماده في هذا الكتاب على آراء نظرية خالصة ونظرات فلسفية معروفة [1] بل اذا أورد فكرة استدل عليها بحادثة وقعت له أو رآها مباشرة أو رواها عمن يثق به ، وذلك بتخصيص بفقرة يصطلح عليها بـ «خبر» [2]

وحينما كان يكتب ابن حزم عن الحب كان واعيا بضرورة التخصص والوقوف عند حدود الموضوع ، لأنه يدرس عمليات نفسية وانفعالات عاطفية ، لها ظواهر نفسية معينة وتأخذ جانبا خاصا من حياة الانسان النفسية واتجاهاته الباطنية ، لهذا فكتاب «طوق الحمامة» لن يكون كتابا أخلاقيا من حيث القصد ولن يكون كتابا روائيا أو بلاغيا يقف به عند هذه الجوانب من حياة الانسان ، وانما هو كتاب نفسي بالدرجة الاولى يدرس مشكلة معينة من مشاكل الانسان النفسية ، لهذا فهو يقف عند حد هذه المسألة ولا يتعداها الى موضوعات أخرى تمت اليها بصلة الا من باب الايماء أو ابراز وجه الرابطة بين هذا الموضوع أو ذاك وفي هذا يقول : «ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام في أخلاق الانسان وصفاته المطبوعة والتطبع بها وما يزيد من المطبوع بالتطبع وما يضمحل من التطبع بعدم الطبع لزدت في هذا المكان ما يجب أن يوضع في مثله ولكنا انما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر الحب فقط وهذا أمر كان يطول اذ الكلام فيه يتغنى كثيرا»[3].

فهو إن ذكر بعض الجوانب الاخلاقية في هذا الكتاب فانما ذكرها من باب علاقتها بالحب وارتباطها به ارتباط الراحتين بالاصابع موظفا كل طاقاته لبيان أوجه جوانب الحياة الانسانية المتعددة وانفعالاتها تجاه مواضع الحب، وهذا أمر الطابع الغالب على دراسته في هذا الكتاب وليس كما ذهب اليه زكريا ابراهيم من أن ابن حزم قد تناول موضوع الحب من وجهة نظر الأديب والشاعر والمؤرخ أكثر مما تناوله من وجهة نظر الفليسوف والمحلل النفساني»[4]

فكما مر بنا أن قصده الاساسي هو تبيين الحقائق وليس هو عرض التواريخ والأحداث ، ولئن كان هناك حضور مكثف لمثل هذه الموضوعات في الكتاب فإن ذلك لا يعني امكانية الاستغناء عنها في البحث العلمي اذ أن الشعر ما هو الا نموذج من نماذج الاتجاهات النفسية الانسانية وكذلك التواريخ فإنها أحسن وسيلة لتدعيم الحقائق وتثبيت القواعد ، وابراز مصداقيتها نظرا لمطابقتها لما حدث في الواقع وهذا فإننا لا نكاد نجد في كتاب «طوق الحمامة»

فكرة نظرية مفصولة عن حادثة شخصية أو تاريخية أو استشهاد شعري ، مما يبين لنا أن منهج ابن حزم في البحث النفسي هو منهج نظري تجريبي في آن واحد قد اعتمد الملاحظة المباشرة وغير المباشرة كما اعتمد منهج الاستبطان ، بالاضافة الى هذا فإن منهج ابن حزم منهج توثيقي في أبحاثه[1] . وهذا التوثيق يقتضي منه ايراد الاخبار[2] المتعددة لكي يحصل اليقين وتصير الاستنتاجات قطعية ومعضدة بالوثائق اللازمة .

(ب) التوثيق والموضوعية العلمية عند ابن حزم

من بين النماذج التي تبين لنا قوة المنهج العلمي المتبع عند ابن حزم نذكر ما أورده حول العلة التي تكون سببا للحب .

«وأما العلة التي توقع الحب أبدا في أكثر الأمر على الصورة الحسنة فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن وتميل الى التصاوير المتقنة فهي اذا رأت بعضها تشتت فيه فإن ميرت وراءها شيئا من اشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية وان لم تميز وراءها شيئا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة وذلك هو الشهوة ، وان للصور لتوصيلا عجيبا بين أجزاء النفوس النائية»[3]

فبعد ما أرسى الأسس النظرية في تحديد أسباب الحب وطرق تثبيته استطرد في ايراد النماذج المأثورة والاحداث المعضدة لهذا المذهب النظري ثم يختم دراسته بأبيات شعرية مناسبة وملخصة لما كان بصدد البحث فيه . وهذه الابيات كلها معان علمية أكثر منها خيالات وبحور وهمية ، نذكر من بينها بعض أبيات هذه القصيدة النفسية التي كان البعض ـ كما يذكر ابن حزم ـ يسميها «الادراك المتوهم»

ترى كل صد به قائما ... فكيف تجد اختلاف المعاني
فيا أيها الجسم لا ذا جهات ... وياعرضا ثابتا غير فان
نقضت علينا وجوه الكلام ... فما هو مذ لحت بالمستبان[1]

وبهذا أمكن القول بأن المنهج عند ابن حزم شكل بحثا علميا موضوعيا وليس سيرة ذاتية بالمعنى القصصي أو الاخبار الغاية منه اضطراب الخواطر كأحاديث الأسمار ، وانما هي سيرة ذاتية بناءة تحكي عن نفسها وعن غيرها لكي تقيم نظرية أو تصدر كلمة تحوي جنسا ونوعا . . . الخ .

وعندما كان يصب اهتمامه بدراسة شخصية معينة من أجل اقامة بناء نظري فإن اختياره لهذه الشخصية كان يقوم على اعتبارات ضرورية حتى تكتسب نظريته قوة ومتانة ولا تكون عرضة للخلل أو الاتهام أوالمراجعة ، ومن بين نماذج صفات الشخصيات التي اعتمدها ابن حزم في دراساته هم أناس «لا يتهمون في تمييزهم ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم ولا اختلال لحسن اختيارهم ولا تقصير في حدسهم ، قد وصفوا أحبابا لهم في بعض صفاتهم بما ليس اليستحسن عند الناس ولا يرضى في الجمال ، فصارت هجيراهم وعرضة لاهوائهم ومنتهى استحسانهم ثم مضى أولئك إما بسلو أوبين أو هجر أو بعض عوارض الحب وما فارقهم

استحسان تلك الصفات ولا بان تفصيلها على ما هو أفضل منها في الخليقة ، ولا مالوا الى سواها بل سارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى أن فارقوا الدنيا وانقصت أعمارهم حينا منهم الى من فقدوه ، وألفة لمن صحبوه، وما أقول ان ذلك كان تصنعا لكن طبعا حقيقيا واختيارا لا دخل فيه ولا يرون سواه ولا يقولون في طي عقدهم بغيره " . . . وما أصف من منقوصي الحظوظ في العلم والادب لكن عن أوفر الناس قسطا في الادراك وأحقهم باسم الفهم والدراية " [1] وعلى هذا النهج سار في اقامة دعائم دراسته في الكتاب وكثيرا مايأتي بذكر الشخص المستشهد بحالته النفسية أو العاطفية الخاصة مقرونا بذكرمكانته العلمية وصحته النفسية العامة قبل الحادث[2] لكي يبرهن للقارىء بأن هذه الفكرة أو تلك ليست وليدة التخمين والرمي في عماية وانما هي نتاج درس تحقيقي وموضوعي أقصى ما يمكن أن تمثله الموضوعية . ولربما هذا التحري الذي سلكه ابن حزم في بحوثه النفسية هاته، قد يتخطى مستوى بعض الدراسات الحديثة، اذ أنها لم تخل من نقائص اذا قسناها بالمنهج الذي ذكرناه عن ابن حزم من حيث اكساب المطالع للكتاب الثقة بالنتائج المحصل عليها .

ج) التوثيق بين ابن حزم والمدارس النفسية الحديثة .

١) فالمنهج الذي سلكه مثلا فرويد مؤسس المدرسة التحليلية (١٩٣٩) بالتركيز على شخصيات محددة لاتتعدى أصابع اليد الواحدة، وخاصة شخصية هانز الصغير الذى كان يمثل محور دراسته كلها ، لايقيد العلم اليقين بالنتائج المحصل عليها من خلال هذا النمط من البحث والخاصة بتحديد أسباب القلق ومفهوم خوف الاطفال من الحيوانات [3] اذ أن طريقة التحليل هذه التي شملت شخصية هانز الصغير كانت تعتمد على الاحتمالات أكثر مما يفيد القطع بصورة برهانية على صحة النتائج المحصل عليها . وهذا ما جعل فرويد يظهر بمظهر المتردد في اقرار نظرياته بل انه قد عبر صراحة عن هذا الضعف الذي كان يختلج نظرياته، وذلك حينما شعر بتناقض في احدى نظرياته عن العرض وأسبابه عند هانز بأنه " لو أن العرض الرئيسي الذي أظهره كان في الواقع عداوة من هذا النوع لاضد أبيه وانما ضد الخيول، لما كنا نقول، وهذا يبد و غريبا أنه مصاب بعصاب ولا بد أن يكون هناك خطأ ما إما في نظريتنا عن الكبت و إما في تعريفنا للعرض[1] ، «وكذلك نجد حضور هذا الاحتمال يظهر عند الحديث عن الشخصية الثانية في بحوث فرويد وهو الشاب الروسي وخوفه من الذئب، فإنه يحلل سبب خوفه هذا علي غرار ما حصل لهانز بأنه " من المحتمل أن والد هذا المريض الروسي كان يقلد الذئب أثناء لعبه معه وكان يهدده مازحا بأنه سيأكله» [2] ، وعن النتائج المحصل عليها أثناء البحث في شخصية هانز الصغير النفسية تطرح تساؤلات عدةحول قيمة شهادتي هذا الطفل الصغير وأبيه بصفة خاصة اذ كانت " تقارير الأب عن سلوك هانز عرضة للشك في عدد من الموضوعات، وعلى سبيل المثال فقد حاول الأب أن يقدم تفسيراته لملاحظات هانز وكأنها حقائق مقررة، كما أن شهادة هانز نفسه لايمكن الاعتماد عليها إطلاقا لأسباب عديدة، فلقد ذكر كذبات عديدة في

الاسابيع الاحيرة لمخاوفه المرضية ، بالاضافة الى أنه قد قدم العديد من التقارير غير المنسقة والمتعارضة أحيانا ، والأهم من ذلك هو أن معظم ماقدم على أنه آراء هانز ومشاعره كان ببساطة عبارة عن كلمات الأب ، ويقر فرويد نفسه بذلك ولكنه يحاول أن يتغاضى عنه حين يقول : " في الحقيقة انه خلال عملية التحليل كان لا بد أن يقال لهانز أشياء كثيرة لا يمكنه قولها بنفسه وكان لا بد أن يمد بأفكار لم يبد أي اشارة لامتلاكه اياها . كما آن انتباهه كان لا بد أن يوجه في الاتجاه الذي يتوقع مسه الاب شيئا ما ، وقد يقبل هذا من القيمة البرهانية للتحليل ولكن بنفس الطريقة تتكرر في كل حالة وذلك لأن التحليل النفسي ليس مجرد فحص علمي صرف ولكنه وسيلة علاجية «ويقول وولب وارخمان تلخيصا لذلك » ان شهادة هانز لا تخضع فحسب لمجرد الايحاء ولكنها تحتوي أيضا على مواد كثيرة ليست من قوله على الاطلاق »[1] واذا تتبعنا الاستبيانات التي تحصل عليها فرويد من أب الصغير هانز ونوع الاسئلة التي طرحت عليه لكي يدلي برأيه لوجدنا آن هناك خللا واضحا وابهاما حول الطريقة التي وصل بها فرويد الى بناء نظريته النفسية ، ومن بين مظاهر الخلل الحاصل في منهجه هو أن المادة " التي قام عليها تحليله " قد تم جمعها عن طريق والد الصغير هانز الذي ظل على صلة بفرويد عن طريق تقارير مكتوبة منتظمة ، ولقد تمت بين الأب وفرويد عدة مناقشات تتعلق بالمخاوف المرضية للصغير هانز، ولكن فرويد نفسه لم يقابل الصبي الصغير خلال التحليل الا مرة واحدة !!! "[2] ، ومن خلال هذا تبدو الموضوعية ضعيفة عند فرويد ، فهي لا تستند الى وثاقة في الاستبيانات ولا الى إحكام نظرية قطعية الدلالة ، وهذا راجع الى غياب المراقبة المباشرة من طرف المحلل النفسي للمريض وكذلك الى نوع الشخص المعتمد عليه في اثبات الحقائق . فبالنسبة للصغير هناك احتمال تأثير نوع الاسئلة على نوع الاجوبة الموجهة من طرف الأب للصغير، وصياغة بعض هذه الأجوبة من طرف الأب وذلك من خلال فهمه الشخصي وغياب تخصصه في طريقة نقل المعاني من الالفاظ . فلربما لم تكن لدى الصبي أية اشتغالات بالمشاكل النفسية التي استنتجها فرويد [3] ، وكان ذهنه خاليا ، لكن من خلال إثارة أسئلة لديه أو الإجابة عن أسئلته المحدودة قد يتولد لدى الطفل اتجاه خاص في سلوكه وشرود ذهني في موضوعات كان في غنى عنها لولا افتعال هذا الجو المسرحي "[1] المستفز لمكامن شخصية الطفل التي كانت ماتزال في مرحلة انتقالية وعدم استقرار سواء على المستوى العقلي أو العاطفي لهذا فكل أحكامه في هذه المرحلة لا يصلح الاعتماد عليها في بناء نظرية ما ، ولم تكن العشوائية يوما ما أساسا لنظرية أو حقيقة علمية ، بالاضافة الى هذا فإن الجانب الاخلاقي لدى الطفل في هذه المرحلة يكون غير مستقر ولا يملك حرية التصرف الاخلاقي الا بحسب الجو الذي نشأ فيه ، وهذا ما ذهب اليه بعض المفكرين المسلمين الاخلاقيين كابن مسكويه الذي يرى أن " أول ما ينبغي أن يتفرس في الصبي ويستدل به على عقله الحياء فإنه يدل علي أنه قد أحس بالقبيح ، ومع إحساسه به هو يحذره ويتجنبه ويخاف أن يظهر منه أو فيه ، فاذا نظرت الى الصبي فوجدته مستحييا مطرقا بطرفه الى الارض غير وقاح الوجه ولا محدق اليك فهو أول دليل نجابته ، والشاهد لك على أن نفسه قد

آحست بالجميل والقبيح وأن حياءه هو انحصار نفسه خوفا من قبيح يظهر منه ، وهذا ليس بتيء أكثر من ايتار الجميل والهرب من القبيح بالتمييز والعقل وهذه النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب أن تهمل ولا تترك ومخالطةالأضداد الدين يفسدون بالمقارنة والمداخلة " [٢] ٢) وهذه الخصلة المميزة للطفل في أول نشوئه اعتبرها الماوردي من خصائص البنية السليمة للطفل ، وهي تعبر في حصورها أو عيابها عن انعكاس لا شعوري عند الطفل للاوضاع العامة التي يكون عليها مجتمع ما [٣] ونفس الشيء هو الدي دهب اليه الغزالي بخصوص تأثير البيئة على الطفل من حيث اكتسابه للفضائل والرذائل بينما تكون هذه الاخيرة أقرب اليه وله نزوح نحوها اذا لم يوجه التوجيه الخلقي السليم لأنه " مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الاغلب ردىء الاخلاق حسودا سروقا نماما لحوحا دا فضول وضحك وكياد ومجانة " [٤] .

وليس بمستبعد أن يكون هانز من النموذج الذي ذكره الغزالي في هذا النص الرائع الذي يصف لنا نفسية الطفل المهملة عند النشوء فكانت النتيحة العلمية التي توصل اليها فرويد مجرد استهتار من ذلك الصبي وسخريته من المحللين والمثيرين لاسئلة غريبة على مرحلة حيائه .

ولو جاء فرويد الى مجتمع اسلامي واتصلت أبحاثه بصبي مسلم له نشوء اسلامي مبني على الحياء الذي اتفق عليه العلماء المسلمون بأنه من علامات النجابة لدى الطفل ، فإنه قطعا سيجد أن أحكامه ونتائجه عن هانز كانت وهمية ومركزة على شخصية غير سوية سلوكا وأخلاقا ، ولهذا فلا تصلح نظرياته لكي تعمم على كل الناس وتصير قانونا متحكما في مساراتهم واتجاهاتهم السلوكية .

ومما يزيد الطين بلة من حيث ابراز الخلل في منهج فرويد للبحث النفسي ، هو اعتماده على الاساطير [١] في اثبات نظريته ، دون التأكد من صحة القصة التى يوردها ، ومن أهمها عنده أسطورة الملك أوديب اليونانية [٢] ولايرى في هذا الموضوع الميثولوجي مجرد اثبات لحقيقة أن الرغبات الجنسية هي أساس نشاط الانسان فحسب ، بل يعتبره تأكيدا لفكرة وجود تلك المركبات (العقد) الجنسية الكاملة ـ حسب رأيه ـ في الانسان منذ الطفولة «فكان» التفسير الفرويدي للرغبات الجنسية بعيدا كل البعد عن النظرية العلمية للمسألة ، ومما يدل على وهمية حجج فرويد يكفي أن نذكر التوجه الى الاستعارات الميثولوجية [٣]

ولئن كان هانز الصغير وما أحيطت حوله من نظريات يمثل جوهر طريقة فرويد والمحللين النفسيين بشكل عام ، فإنه توجد طريقة أخرى مشابهة لها من حيث اعتماد شخصية طفل صغير في الدراسة النفسية ، وهذه الطريقة توضح وجهة نظر بافلوف الباحث النفسي الروسي والسلوكيين [١] وهي تعتمد على طفل صغير آخر أمريكي يدعى ألبرت درس حالته ج . ب . واطسون وهو المؤسس الشهير لمدرسة السلوكيين والذي أوضح أنه يمكن بالتأكيد تكوين المخاوف المرضية تجريبيا باستخدام وسائل كتلك التي استخدمها بافلوف في عملية تكوين التشريط البسيط ، وقد حاول أن يثبت ذلك بالاستفادة من الصغير ألبرت الذي يبلغ من العمر أحد عشر شهر [٢].

وليس قصدنا في هذه العجالة مناقشة المدارس النفسية الحديثة أو مقارنتها بالمدارس الإسلامية ، لكن الهدف كان هو محاولة تسليط الضوء على المنهج الذي نهجه ابن حزم في الحصول على معلوماته النفسية والمتركزة أساسا حول موضوع الحب ، وذلك بتبيين أهمية هذا المنهج وقوته في اكساب المعرفة الحقة ولئن غلبنا الحديث عند التعرض للمدارس النفسية الحديثة عن فرويد ومنهجه ، فليس ذلك الا لأن كتاب « طوق الحمامة » يهم جانبا مهما من جوانب الاتجاهات النفسية عند فرويد والمتعلقة بموضوع الجنس والعاطفة الحائمة حوله ، ولكن مع وجود مفارقات كبيرة في وجهة النظر حول هذا الموضوع سواء في دوافعه[٣] أوغاياته . وهذا ما لا يسمح المجال الآن بتفصيل النظر فيه ، اذ المقصود هو تحديد منهج ابن حزم وعناصره .

٣) فالمنهج اذن عند ابن حزم يعتمد على ملاحظة الإنسان سليما قبل أن يصير سقيما ، وكامل الأهلية قبل أن يكون ناقصها ، ومن خلال المقارنة بين هذه الاضداد يخرج بنتيجة علمية جد دقيقة ولها اعتبارات منطقية تعتبر من الاوائل العقلية الضرورية ، اذ بضدها تتميز الاشياء ، بل انها تتشابه اذا كان التضاد كليا ، وبهذا قد يحسب السقيم سليما وهو ليس كذلك ، والاضداد أنداد ، والاشياء اذا أفرطت في غايات تضادها ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت ، قدرة من الله عز وجل تضل فيها الاوهام ، فهذا الثلج اذا أدمن حبسه في اليد فعل فعل النار ، ونجد الفرح إذا أفرط قتل ، والغم اذا أفرط قتل ، والضحك اذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين ، وهذا في العالم كثير[١]

فكان هذا من بين أسسه المنهجية والمميز لدراساته سواء منها النفسية المحضة أو الخلقية ، وهو يسعى دائما الى ابراز صدق مقولاته ونظرياته عن طريق التجربة الواقعية والمشاهدة الحقيقية ، فنراه في اغلب ما يورده من افكار نظرية الا ويستطرد قوله بالاشارة الى انه راى هذا الامر المنصوص عليه رأى معاينة ومعايشة بـ . « رأيت من أهل هذه الصفات » أو « قد رأيت من هذه صفته »[٢]

وهذا عند وصف حالة نادرة الوقوع نوعاما ، حتى انه قد يحدد مستوى هذه الندرة وامكانية وقوعها ، ولا يجوز لنفسه أن يورد مفاجآت علمية غير مستندة الى وقائع ملموسة أو أحكام عقلية متفق عليها ، وذلك سعيا منه الى تحري الموضوعية واعتماد الحقائق العلمية الا اذا كان قد شاهدها بنفسه وعن وعي ودراية ، ومثل هذا التحري ما أورده في موضوع من أحب في النوم حيث يقول : « ولا بد لكل حب من سبب يكون له أصلا وأنا مبتدىء بأبعد ما يمكن أن يكون من أسبابه ليجري الكلام على نسق أو أن يبتدأ بالسهل والأهون ، فمن أسبابه شيء لولا أني شاهدته لم أذكره لغرابته »[٣]، أما اذا كانت الحالة مستفيضة الوقوع ومشهورة فانه يعبر عنها كثيرا بقوله « قد وقع لغير ما واحد » أو « قد عرض هذا لغير واحد » ، لكنه رغم تسليمه بكثرة ورود مثل هذه الحالات فانه لا يعطيها كل المصداقية لكي تصير قانونا عاما ، وانما يحكم فيها فكره ويردها اذا كانت غير مستساغة وليس لها مبرر معقول كما نجده في رده على من أحب بالوصف وتحليله لنفسية هذا الشخص تحليلا دقيقا مع الاقرار بوقوعه بكثرة في أوساط الناس اذ

يقول : « وهذا كله قد وقع لغيرما واحد ولكنه عندى بنيان هار على غير أساس وذلك أن الذي أفرغ ذهنه في هوى من لم ير لابد له اذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها ، أو عينا يقيمها نصب ضميره ولا يتمثل في هاجسه غيرها ، قد مال بوهمه نحوها ، فان وقعت المعاينة يوما ما فحينئذ يتأكد الامر أو يبطل بالكلية وكلا الوجهين قد عرض وعرف ، وأكثر ما يقع هذا في ربات القصور المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحب النساء في هذا أثبت من حب الرجال لضعفهن وسرعة اجابة طبائعهن الى هذا الشأن وتمكنه منهن»(١)

د) المنهج باختصار :

بعد هذا يبدو من اللائق القول بأن ابن حزم كان رجلا ذا منهج دقيق في كتابه « طوق الحمامة » هذا وأنه لم يكن مجرد أديب أو مؤرخ بالمعنى المألوف وانما كان باحثا علميا يلاحظ ويسجل ، ويفحص ، ويعلل ويأتي بالنتائج من مصادر موثوق بها وقابلة لكي تسمى إنسانية ، وذلك لأنها صدرت عن الانسان في طور كمال نموه المعقلي ، والجسمي ، فهو لم يعتمد أشخاصا دون سن التمييز أو سن الرشد في أبحاثه كما فعل فرويد مع هانز الصغير الدي كان له من العمر خمس سنين(٢)وواطسن مع ألبرت الذي كان يبلغ من العمر أكثر من سنة ، ودراسة علاقته بالفئران وخوفه منها لبناء نظرية في التشريط ، وتعميم مظاهر الاستجابات لدى الحيوان والانسان كما فعل بافلوف بنقل المظاهر النفسية للكلب وجعلها قانونا لدى الانسان . . . الخ . ولكنه عالج موضوعات الانسان لدى الانسان الصغير له سلوكه الخاص والكبير كذلك ، والمرأة لها جوانب نفسية ليست لدى الرجال وكل جنس له خصائصه ، منها الثابتة ومنها العرضية التى تتأثر بالزمان والمكان والحركة والسكون . . . الخ .

ويبدو أن زكريا ابراهيم قد أصاب في التعبير عن منهج ابن حزم حينما أجمله بقوله : « وربما كانت أول ملاحظة تعن للباحث عند مطالعته لرسالة ابن حزم في الحب هي هذا التسلسل المنطقي في العرض وذلك الترتيب المنهجي في تناول الموضوع يعكس ما درج عليه الكتاب العرب من استطراد واسترسال واطناب ، فابن حزم يبدأ حديثه بالكلام في ماهية الحب ثم ينتقل بعد ذلك الى الحديث عن نشأة الحب فيستقصي علاماته ومظاهره ويستعرض أنواعه ونماذجه ثم يتتبع أحوال المحبين وعوارض حبهم لكي ينتهي الى القول بأنه لم يحدثنا عن الحب بلغة الشعراء الحالمين بل هو قد اقتصر في رسالته على الحقائق الواقعية التي لا يمكن وجود سواها أصلا»(١)

ويضيف قائلا في ختام حديثه عن ابن حزم ومنهجه في « طوق الحمامة » وعلى الرغم من أن ابن حزم ليس أول من كتب في الحب من أدباء العرب (فقد سبقه الى ذلك اخوان الصفا في بعض رسائلهم وابن المقفع في « الادب الكبير والادب الصغير » والجاحظ في الرسالة السابعة من مجموعة رسائله في العشق والنساء) الا أن ابن حزم قد فاق كل هؤلاء في دقة منهجه وتسلسل أفكاره وترابط بحثه ورقة حسه وبعد غوصه ، وقد اتبع ابن حزم في دراسته للحب منهجي الاستبطان والاستقراء فجاءت رسالته حافلة بالملاحظات النفسية الدقيقة والخبرات الحية المعاشة

والأمثلة التـاريخية الصادقـة والنماذج البشرية المتنوعـة وهذا مـا جعل منها دراسة فـذة في تاريخ الأدب العربي . (٢)

وهو نفس الشيء الذي حـدا بنا إلى اعتبار هذا الكتاب محور الدراسـات النفسية عند ابن حـزم ، وذلك كما رخر بـه من خصوصيـات سـواء منها المنهجيـة أو المعرفيـة التي سنستخلص الكثير منها إن شاء الله تعالى .

* هوامش البحث

(١) ابن حزم . طوق الحمامة ، ص ١٩٥ تحقيق الطاهر أحمد مكي . دار المعارف . الطبعة الثانية .
(١) الدكتور زكريا ابراهيم مشكلة الحب ، دار مصر للطباعة ، الطبعة الثانية ص : ٣٢٤ .
(٢) ابن حزم . طوق الحمامة ، ص ٢٦ .
(٣) نفس المرجع ، ص . ١٠٩ .
(٤) زكريا ابراهيم مشكلة الحب : ص ٣٢٢ .
(١) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص . ٤٠
(٢) نفس المصدر ، ص : ٩٦
(٣) نفس المصدر ، ص . ٢٤ .
(١) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص : ٢٥ .
(١) ابن حزم، طوق الحمامة ص: ٤٧ .
(٢) نفس المصدر ص ١٣٩ ـ ١٤٠
(٣) سيجموند فرويد، الكف والعرض والقلق، ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي ص ١٦٨ دار الشروق بيروت . الطبعة الثالثة ١٤٠٣ و١٩٨٣م .
(١) سيجموند فرويد، الكف والعرض والقلق، ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي ص : ٧١ .
(٢) نفس المصدر ص : ٧٢ .
(١) هـ. ج ايزنك . الحقيقة والوهم في علم النفس، دار المعارف بمصر، ترجمة قدري حفني رؤوف نظمي ص : ١١٦ .
(٢) نفس المرجع ص ١٠٧ .
(٣) سيجمند فرويد : الكف والعرض والقلق، ص : ٦٧
(١) هـ. ح ايزنك : الحقيقة والوهم في علم النفس ص : ١١٨
٢)ابن مسكويه : تهذيب الاخلاق تطهير الاعراق ص :٥٨ مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ـ ١٣٧٨و١٩٥٨ .
(٣) الماوردي : أدب الدنيا والدين، ص : ١٦٨ الطبعة الأولى تصحيح محمد محمد محيسن .
(٤) الغزالي، احياء علوم الدين، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ج ٣ص : ٦٢
(١) سيجمند فرويد : الكف والعرض والقلق، ص : ٧٣ .
(٢) سيجمند فرويد . تفسير الاحلام، ترجمة مصطفى صفوان، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ص : ٢٧٧ .
(٣) فاليري ليبى : مذهب التحليل النفسي وفلسفة « الفرويدية الجديدة»دار الفارابي بيروت الطبعة الاولى ١٩٨١ص : ٤٤ .
(١) هـ. ج . ايزنك : الحقيقة والوهم في علم النفس، ص : ٩٤ .
(٢) نفس المصدر، ص : ١٢٢ .
(٣) ابن حزم، طوق الحمامة ص : ٢٤ .
(١) ابن حزم : طوق الحمامة، ص : ٢٩
(٢) نفس المصدر، ص : ٧٥ .
(٣) نفس المصدر، ص ٣٦ .
(١) ابن حزم : طوق الحمامة ص : ٣٨ .

(٢) هـ. ج. ايزنك. الحقيقة والوهم في علم النفس ص: ١٠٥
(١) زكريا ابراهيم: مشكلة الحب. ص ٣٢٢.
(٢) نفس المصدر، ص. ص: ٣٤٠